المشكلة

ـ ٤ ـ

صاحب هذه المشكلة رجلٌ أعور العقل . . . يرى عقله من ناحيةٍ واحدةٍ ، فقد غاب عنه نصف الوجود في مشكلته ، ولو أنَّ عقله أبصرَ من النَّاحيتين ؛ لما رأى المشكلة خالصةً في إشكالها ، ولوجدَ في ناحيتها الأخرى حظَّاً لنفسه قد أصابه ، ومذهباً في السَّلامة لم يُخطِئه ؛ وكان في هذه النَّاحية عذاب الجنون ؛ لو عذَّبه الله به ، وكان يُصبح أشقى الخلق ؛ لو رماه الله في الجهة الَّتي أنقذه منها ، فتهيَّأت له المشكلة على وجهها الثَّاني .

ماذا أنت قائلٌ يا صاحب المشكلة ! لو أنَّ زوجتك هذه المسكينة المظلومة ؛ الَّتي بنَيتَ بها ، كانت هي الَّتي أُكرِهتْ على الرِّضا بك ، وحُملت على ذلك من أبيها ؛ ثمَّ كنت أنت لها عاشقاً ، وبها صَبّاً ، وفيها مُتدلِّهاً ، ثمَّ كانت هي تحبُّ رجلاً غيرك ، وتصبو إليه ، وتفتتن به ، وقد احترقتْ عشقاً له ؛ فإذا جَلوها عليك ؛ رأتك البغيض المقِيتَ ، ورأتكَ الدَّميمَ الكريه ، وفزِعتْ منك فزعها من اللِّص القاتل ، وتمدُّ لها يدكَ ، فتتحاماها تحامِيَها المجذوم ، أو الأبرص ، وتكلِّمُها فتُحَمُّ برداً من ثِقل كلامك ، وتفتح لها ذراعيك ، فتحسبهما حَبْلين من مشنقتين ، وتتحبَّبُ إليها ؛ فإذا أنت أسمجُ خلق الله عندها ؛ إذ تحاولُ في نذالةٍ أن تحلَّ منها محلَّ حبيبها ، تُقبلُ عليها بوجهك ، فتراه ـ من تقذُّرِها إيَّاكَ ، واشمئزازها منك ـ وجهَ الذُّبابة مكبَّراً بفظاعةٍ ، وشناعةٍ في قدر صورة وجه الرَّجل ؛ ليتجاوز حدَّ القبح إلى حدِّ الغثاثة ، إلى حدِّ انقلاب النَّفس من رؤيته ، إلى حدِّ القيء إذا دنا وجهك من وجهها . . .

ماذا أنت قائل يا صاحبَ المشكلة ! لو أنَّ مشكلتَك هذه جاءت من أنَّ بينك وبين زوجتك (الرَّجل الثَّاني) لا المرأة الثانية ؟ ألست الآن في رحمةٍ من الله بك ، وفي نعمةٍ كفَّتْ عنك مُصيبةً ، وفي موقفٍ بين الرَّحمة والنِّعمة يقتضيك أن تَرقبَ في حكمك على هذه الزَّوجة المسكينة حكم الله عليك ؟

* * *

تقول : الحبُّ ، والخيالُ ، والفنُّ ! وتذهب في مذاهبها ؛ غير أنَّ المشكلة قد دلَّت على أنَّك بعيدٌ من فهم هذه الحقائق ، ولو أنت فهمتها ؛ لما كانت لك مشكلةٌ ، ولا حسبتَ نفسك منحوسَ الحظِّ محروماً ، ولا جهلتَ : أنَّ في داخل العين من كلِّ ذي فنٍّ عيناً خاصَّةً بالأحلام ؛ كيلا تعمَى عينُه عن الحقائق .

الحبُّ لفظٌ وهميٌّ موضوعٌ على أضدادٍ مختلفةٍ : على بُركانٍ وروضةٍ ، وعلى سماءٍ وأرضٍ ، وعلى بكاءٍ وضحكٍ ، وعلى همومٍ كثيرة كلُّها همومٌ ، وعلى أفراحٍ قليلة ليست كلُّها أفراحاً ، وهو خداعٌ من النَّفس يضع كلَّ ذكائه في المحبوب ، ويجعلُ كلَّ بَلاهته في المحبِّ ، فلا يكون المحبوبُ عند محبِّه إلا شخصاً خياليّاً ذا صفةٍ واحدة هي الكمال المطلق ، فكأنَّه فوق البشريَّةِ في وجودٍ تامِّ الجمالِ ، ولا عيب فيه ، والنَّاس من بعده موجودون في العيوب ، والمحاسن .

وذلك وَهْمٌ لا تقومُ عليه الحياة ، ولا تصلح به ، فإنَّما تقوم الحياة على الرُّوح العمليَّة ؛ الَّتي تضع في كلِّ شيءٍ معناه الصَّحيح الثَّابت ، فالحبُّ على هذا شيءٌ غير الزَّواج ، وبينهما مثلُ ما بين الاضطراب ، والنِّظام ؛ ويجب أن يُفهم هذا الحبُّ على النَّحو الَّذي يجعله حبّاً لا غير ، فقد يكون أقوى حبٍّ بين اثنين ؛ إذا تحابَّا هو أسخف زواجٍ بينهما ؛ إذا تزوَّجا .

وذو الفنِّ لا يُفيد من هذا الحبِّ فائدته الصَّحيحة إلا إذا جعله تحت عقله ، لا فوق عقله ، فيكون في حبِّه عاقلاً بجنونٍ لطيفٍ ، ويترك العاطفةَ تدخلُ في التَّفكير ، وتضع فيه جمالها ، وثورتَها ، وقوَّتَها ؛ ومن ثمَّ يرى مجاهدَة اللَّذة في الحبِّ هي أسمى لذَّاته الفكريَّة ، ويعرفُ بها في نفسه ضرباً إلـٰهيّاً من السَّكينة يُوليه القدرة على أن يقهرَ الطَّبيعة الإنسانيَّة ، ويصرِّفها ، ويُبدعَ منها عمله الفنيَّ العجيب .

وهذا الضَّربُ من السُّموِّ لا يبلغه إلا الفكرُ القويُّ ؛ الَّذي فازَ على شهواته ، وكبَحَها ، وتحمَّلها تغلي فيه غليانَ الماء في المِرْجل ؛ ليخرج منها ألطف ما فيها ، ويحوِّلها حركةً في الرُّوح تنشأ منها حياةُ هذه المعاني الفنيَّة ؛ وما أشبه ذا الفنِّ بالشَّجرة الحيَّة ، إن لم تضبِط ما في داخلها أصحَّ الضَّبط ؛ لم يكن في ظاهرها إلا أضعفُ عملها .

ومثلُ هذا الفكر العاشق يحتاج إلى الزَّوجة حاجته إلى الحبيبة ، وهو في قوَّته يجمع بين كرامة هذه ، وقدسيَّة هذه ؛ لأنَّ إحداهما تُوازن الأخرى وتعدلها في الطبع ،

وتخفِّف من طُغيانها على الغريزة ، وتمسك القلب أن يتبدَّد في جوِّه الخياليّ .

* * *

والرَّجل الكامل المفكِّر المتخيِّل إذا كان زوجاً ، وعَشق ، أو كان عاشقاً وتزوَّج بغير من يهواها ؛ استطاع أن يبتدع لنفسه فنّاً جميلاً من مسرَّات الفكر ، لا يجده العاشق ، ولا يناله المتزوِّج ؛ وإنَّه ليرى زوجته من الحبيبة كالتِّمثال جَمَدَ على هيئةٍ واحدةٍ ، غير أنَّه لا يُغفِل أنَّ هذا هو سرٌّ من أسرار الإبداع في التِّمثال ؛ إذ تلك هيئة استقرار الأسمىٰ في سموِّه ، فإنَّ الزَّوجة أمومةٌ على قاعدتها ، وحياةٌ على قاعدتها ؛ أمَّا الحبيبة فلا قاعدة لها ، وهي معانٍ شاردةٌ ، لا تستقرُّ ، وزائلةٌ لا تثبت ، وفنُّها كلُّه في أن تبقى حيث هي ، كما هي ، فجمالها يحيا كلَّ يومٍ حياةً جديدةً ما دامت فنّاً محضاً ، وإنَّما سرُّ أنوثتها في حجابه .

ومتى تزوَّج الرَّجل بمن يحبُّها انتهك له حجاب أُنوثتها ، فبطلَ أن يكون فيها سرٌّ ، وعادت له غير مَنْ كانت ، وعاد لها غير مَنْ كان ؛ وهذا التحوُّل في كلٍّ منهما هو زوال كلٍّ منهما من خيال صاحبه ، فليس يصلح الحبُّ أساساً للسَّعادة في الزَّواج ، بل أحْرِ به إذا كان وَجْداً واحتراقاً أن يكون أساساً للشُّؤم فيه ؛ إذ كان قد وضع بين الزَّوجين حدّاً يعيِّنُ لهما درجةً من درجةٍ في الشَّغف ، والصَّبابة ، والخيال ، وهما بعد الزَّواج متراجعان وراء هذا الحدِّ ما من ذلك بدٌّ ، فإن لم يكن الزَّوج في هذه الحالة رجلاً تامَّ الرُّجولة ؛ أفسدت الحياة عليه ، وعلى زوجته صبيانيَّة رُوحه ، فالتمس في الزَّوجة ما لم يَعُد فيها ، فإذا انكشف له فراغها ذهب يلتمسُه في غيرها ، وكان بلاءً عليها ، وعلى نفسه وعلى أولاده قبل أن يولدوا ؛ إذ يضع أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبي أولادها ، ويفسد إحساسها ، فيفسد تكوينها النَّفسيَّ ، وما المرأة إلا حسُّها وشعورُها[1] .

* * *

فالشَّأن هو في تمام الرُّجولة ، وقوَّتها ، وشهامتها ، وفحولتها ، إنْ كان الرَّجل

(١) هذا كلُّه من بعض الحكمة في أنَّ الإسلام لا يُبيح اختلاطَ الزوجين قبل العَقْد ؛ إذ لا يعرف الدِّين الإسلامي من الزوجين إلا أسرة يجب أن تُبنى بما يبنيها ، وتُصان بما يصونها . وقد أشرنا إلى حكمةٍ أخرى في المقالة الأولى من المشكلة . (ع) .

عاشقاً ، أو لم يكنْه . **وما من رجل قويّ الرُّجولة إلا وأساسه ديانته ، وكرامته ،** وما من ذي دينٍ ، أو كرامةٍ يقع في مثل هذه المشكلة ، ثمَّ تُظلم به الزَّوجة ، أو يحيف عليها ، أو يُفسد ما بينه وبينها من المداخلة ، وحسن العِشرة ، بَله أن يراها كما يقول صاحب المشكلة (مصيبةً) فيُجافيها ، ويبالغ في إعْناتها ، ويشفِيَ غيظه بإذلالها ، واحتقارها .

وأيُّ ذي دينٍ يأمن على دينه أن يَهلك في بعض ذلك فضلاً عن كلِّ ذلك ؟ وأيُّ ذي كرامةٍ يرضى لكرامته أن تنقلب خسَّةً ، ودناءةً ، ونذالةً في معاملة امرأةٍ هو لا غيره ذنْبُها ؟

إنَّ أساس الدِّين والكرامة ألا يخرج إنسانٌ عن قاعدة الفضيلة الاجتماعيَّة في حلِّ مشكلته إنْ تورَّط في مشكلةٍ ، فمن كان فقيراً لا يسرق بحجَّة : أنَّه فقير ؛ بل يكدُّ ، ويعمل ، ويصبر على ما يعانيه من ذلك . ومن كان محبّاً لا يستَذلُّ المرأة ، فيسقطها بحجَّة : أنَّه عاشقٌ . ومن كان كصاحب المشكلة لا يظلم امرأته ، فيمقتها بحجَّة : أنَّه يعشق غيرها ؛ وإنَّما الإنسان مَنْ أظهر في كلِّ ذلك ، ونحو ذلك أثرَه الإنسانيَّ ، لا أثرَه الوحشيَّ ، واعتبر أموره الخاصَّة بقاعدة الجماعة ، لا بقاعدة الفرد ؛ وإنَّما الدِّين في السُّموِّ على أهواء النَّفس ؛ ولا يَتسامى امرؤٌ على نفسه ، وأهواء نفسه إلا بإنزالها على حكم القاعدة العامَّة ، فمن هناك يتسامى ، ومن هناك يبدو علوُّه فيما يبلغ إليه .

وإذا حلَّ اللِّصُّ مشكلته على قاعدته هو ؛ فقد حلَّها ، ولكنَّه حلٌّ يجعله هو بجملته مشكلةً للنَّاس جميعاً ، حتى ليرى الشَّرع في نظرته إلى إنسانيَّة هذا اللِّص : أنَّه غير حقيقٍ باليد العاملة ؛ التي خُلقت له ، فيأمر بقطعها .

وعلى هذه القاعدة ؛ فالجنس البشريُّ كلُّه ينزل منزلة الأبِ في مناصرته لزوجة صاحب المشكلة ، والاستظهارِ لها ، والدِّفاع عنها ، ما دام قد وقع عليها الظُّلم من صاحبها ، وهذا هو حكمها في الضَّمير الإنسانيِّ الأكبر ؛ وإن خالف ضميرَ زوجها العدوِّ الثَّائر الَّذي قطعها من مصادر نفسه ، وموارِدها . أمَّا حكم الحبيبة في هذا الضَّمير الإنسانيِّ ؛ فهو أنَّها في هذا الموضع ليست حبيبةً ، ولكنَّها شحاذة رجالٍ .

* * *

لسنا ننكر : أنَّ صاحب هذه المشكلة يتألَّم منها ، ويتلذَّع بها من الوقدة الَّتي في قلبه ؛ بيد أنَّنا نعرف : أنَّ ألم العاقل غير ألم المجنون ، وحزن الحكيم غير حزن الطَّائش ، والقلب الإنسانيُّ يكاد يكون آلةً مخلوقةً مع الإنسان لإصلاح دنياه ، أو إفسادها ؛ فالحكيم مَنْ عرف كيف يتصرَّف بهذا القلب في آلامه وأوجاعه ، فلا يصنع من ألمه ألماً جديداً يزيده فيه ؛ ولا يُخرِج من الشَّرِّ شرّاً آخرَ يجعله أسوأ ممَّا كان ؛ وإذا لم يجد الحكيم ما يشتهي ، أو أصاب ما لا يشتهي ؛ استطاع أن يخلقَ من قلبه خَلقاً معنوياً يوجدُه الغِنى عن ذلك المحبوب المعدوم ، أو يوجده الصَّبر عن هذا الموجود المكروه ، فتتوازن الأحوال في نفسه ، وتعتدل المعاني على فكره ، وقلبه ، وبهذا الخُلق المعنويِّ يستطيع ذو الفنِّ أن يجعل آلامه كلَّها بدائع فنٍّ[1] . وما هو فكر الحكماء إلا أن يكون مصنعاً ترسلُ إليه المعاني بصورةٍ فيها : الفوضى ، والنَّقص ، والألم ؛ لتخرج منه في صورةٍ فيها : النِّظامُ ، والحكمةُ ، واللَّذه الرُّوحيَّة .

يعشق الرَّجل العاميُّ المتزوِّج ، فإذا السَّاعة ؛ الَّتي أوْبَقته[2] في المشكلة قد جاءته معها بطريقة حلِّها : فإمَّا ضرب امرأته بالطَّلاق ، وإمَّا أهَّلها باتِّخاذ الضَّرَّة عليها ، وإمَّا عذَّبها بالخيانة ، والفجور ؛ لأنَّ بعض العبث من الطَّبيعة في نفس هذا الجاهل هو بعينه عبث الطَّبيعة بهذا الجاهل في غيره ، كأنَّ هذه الطَّبيعة تطلق مدافعها الضَّخمة على الإنسانيَّة من هذه النُّفوس الفارغة . . .

وليس أسهل على الذَّكر من الحيوان أن يحلَّ مشكلة الأنثى حلاً حيوانيّاً ، كحلِّ هذا العاميِّ ، فهو ظافرٌ بالأنثى ، أَو مقتولٌ دونها ما دام مطلقاً مخلًّى بينه وبينها ، والحقيقة هنا حقيقته هو ، والكون كلُّه ليس إلا منفعةً شهوانيَّةً ، وأسمى فضائله ألا يَعجز عن نيل هذه المنفعة .

ثمَّ يعشق الرَّجل الحكيم المتزوِّج فإذا لمشكلته وجهٌ آخر ؛ إذ كان من أصعب الصَّعب وجود رجلٍ يحلُّ هذه المشكلة برجولةٍ ، فإنَّ فيها كرامة الزَّوجة ، وواجبَ الدِّين ، وفيها حقُّ المروءة ، وفيها مع ذلك عَبَث الطَّبيعة ، وخداعُها ، وهزْلها ؛

(١) استوفينا هذه المعاني في كثيرٍ مما كتبنا ، وبعضها في مقالات « الجمال البائس ». (ع).

(٢) « أوبقته » : حبسته .

الَّذي هو أشدُّ الجِدِّ بينها وبين الغريزة ، وبهذا كلِّه تنقلب المشكلة إلى معركةٍ نفسيَّةٍ لا يَحْسمها إلا الظَّفر ، ولا يُعين عليها إلا الصَّبر ، ولا يُفلح في سياستها إلا تحمُّل آلامها ؛ فإذا رُزق العاشق صبراً ، وقوَّةً على الاحتمال ؛ فقد هانَ الباقي ، وتيسَّرت لذَّة الظَّفر الحاسم ، وإن لم يكن هو الظَّفَر بالحبيبة ؛ فإنَّ في نفس الإنسان مواقع مختلفةً ، وآثاراً متباينةً لِلَّذة الواحدة ، وموقعاً أرفع من موقعٍ ، وأثراً أبهج من أثرٍ ؛ وألذُّ من الظَّفر بالحبيبة نفسها عند الرَّجل الحكيم الظَّفرُ بمعانيها ، وأكرمُ منها على نفسه كرامة نفسه ، وإذا انتصر الدِّين ، والفضيلة ، والكرامة ، والعقل ، والفنُّ ؛ لم يبق لخيبة الحبِّ كبير معنى ، ولا عظيم أثر ، ويتوغَّل العاشق في حبِّه ، وقد لبِسْته حالةٌ أخرى ، كما يكظِم الرَّجل الحليم على الغيظ ؛ فذلك يحبُّ ، ولا يَطيش ، وهذا يغتاظ ، ولا يغضب ؛ والبطل الشَّديد البأس لا ينبغ إلا من الشَّدائد القويَّة ، والدَّاهية الأريب[1] لا يخرج إلا من المشكلات المعقَّدة ، والتَّقيُّ الفاضل لا يُعرف إلا بين الأهواء المستحكمة . ولعمري إذا لم يستطع الحكيمُ أن ينتصر على شهوةٍ من شهوات نفسه ، أو يُبطِل حاجةً من حاجاتها ، فماذا فيه من الحكمة ، وماذا فيه من النَّفس ؟!

* * *

وما عقَّد (المشكلة) على صاحبها بين زوجته ، وحبيبته إلا أنَّه بخياله الفاسدِ قد أفسد القوَّة المصلِحةَ فيه ؛ فهو لم يتزوَّج امرأتَه كلَّها . . . وكأنَّه لا يراها أنثى كالنِّساء ، ولا يُبصر عندها إلا فروقاً بين امرأتين : محبوبة ، ومكروهة ؛ وبهذا أفسد عينه كما أفسد خياله ؛ فلو تعلَّم كيف يراها ؛ لرآها ، ولو تعوَّدها ؛ لأحبَّها .

إنَّه مِنْ وهمه كالجواد ؛ الَّذي يشعر بالمقادة في عنقه ؛ فشعورُه بمعنى الحبل ـ وإن كان معنىً ضئيلاً ـ عطَّل فيه كلّ معاني قوَّته ، وإن كانت معاني كثيرةً . وما أقدرَك أيُّها الحبُّ على وضع حبال الخيل ، والبغال ، والحمير في أعناق النَّاس .

* * *

وقد بقي أن نذكر ـ توفيةً للفائدة ـ: أنَّه قد يقع في مثل هذه المشكلة مَنْ نقصت فحولتُه من الرِّجال ، فيدَلِّسُ على نفسه بمثل هذا الحبِّ ، ويبالغ فيه ، ويتجرَّم على

---

(١) « الأريب » : العاقل .

زوجته المسكينة ؛ الَّتي ابتُليت به ، ويختلقُ لها العِلل الواهية المكذوبة ، ويُبغضها ، كأنَّه هو الَّذي ابتُلي بها ، وكأنَّ المصيبة من قِبلها ، لا مِنْ قِبله ؛ وكلُّ ذلك لأنَّ غريزته تحوَّلت إلى فكرِه ، فلم تعد إلا صُوَراً خياليَّةً ، لا تعرف إلا الكذب . وقد قرَّر علماء النَّفس : **أَنَّ من الرِّجال من يكره زوجَته أشدَّ الكره ؛ إذا شعر في نفسه بالمهانة ، والنَّقص من عجزه عنها** . . . فهذا لا يكون رجلاً لامرأته إلا في العداوة ، والنِّقمة ، والكراهية ، وما كان منْ باب شِفاء الغيظ ، وامرأته معه كالمعاهدة السِّياسيَّة من طَرَفٍ واحدٍ : لا قيمة ، ولا حرمة ؛ وإذا أحبَّ هذا ؛ كان حبُّه خياليَّاً شديداً ؛ لأنَّه من جهةٍ يكون كالتَّعزية لنفسه ، ومن جهةٍ أخرى يكون غيظاً لزوجته ، وردّاً بامرأةٍ على امرأةٍ . . .

* * *